الرمز في الرسالة القشيرية للإمام القشيري (ت 465ه)

أ.م.د. مازن داود سالم الربيعي
جامعة بابل / كلية التربية للعلوم الانسانية
Mazndawd16@gmail.com

الملخص :
يتناول هذا البحث صورة الرمز وما تحمله من أبعاد و دلالات ايحائية مفتوحة ذات صلة وثيقة بالمائز من الاساليب والطرائق الفنية في الاستعمالات البيانية عند العرب , في أحد أبرز الانجازات الابداعية العربية الصوفية ألا وهي (الرسالة القشيرية للإمام القشيري (ت 465ه) ؛ تلك المدونة الصوفية التي لم تأخذ حظها من العناية والاهتمام والدرس .
ولعل من اللافت في (الرسالة القشيرية) حالة الصراع الثقافي التي نرصدها بين غنى الادب الصوفي وثرائه وتوظيفاته وبين السلطة العباسية والمجتمع انذاك ؛ اذ كان هذا الصراع يمثل تجربة غنية للتعبير عن الذات الصوفية والحرية الفكرية بفلسفة خاصة وفكر خاص ولغة خاصة ايضا . ويسير البحث في التعامل مع الادب الصوفي بخطوات علمية تعرّف بالرمز لغة واصطلاحا , ومن ثم مقاربة الصورة الرمزية وتحولاتها على مستوى الابداع والفن لمعرفة المغزى وما وراء كل استعمال رمزي ذي بنية تواصلية أسست لمفهوم جديد تجاوز التقليدية البيانية العربية وطرائق تمسكها بالقديم نحو جماليات صوفية مفاجئة وعميقة ومغايرة .
ولعل من أبرز نتائج البحث , غلبة الطابع الصوفي الثقافي غير التقليدي على الاستعمالات الرمزية في الرسالة القشيرية , أضف الى ذلك اقتران الصورة الرمزية بالبرهان الذي يجسد القرابة بين الايحاءات الرامزة وبين بصيرة المتلقي .
وثمة نتائج اخرى مثبتة في متن البحث .
الكلمات المفتاحية : الرمز , الرسالة القشيرية , الادب الصوفي , الكناية , الامام القشيري .

(ه‍d. 465) The symbol in the Al-Qushayri message by Imam Al-Qushayri

Assist.prof.Dr.Mazin Dawood Salim Al-Rubei
College of Education for human sciences
University of Babylon
Mazndawd16@gmail.com

: Summary
This research deals with the image of the symbol and the open suggestive dimensions and connotations it carries that are closely related to the various artistic styles and methods in the use of graphics among the Arabs, in one of the most prominent Arab Sufi creative achievements, namely (Al-Risala Al-Qushayri by Imam Al-Qushayri (d. 465 .AH); that Sufi blog that She did not receive her share of care, attention and study
Perhaps what is striking in (Al-Risala Al-Qushayriyya) is the state of cultural conflict that we observe between the richness of Sufi literature, its richness and its uses, and the Abbasid authority and society at that time. This conflict represented a rich experience in expressing the Sufi self and intellectual freedom with a special philosophy, a special thought, and a special language as well. The research in dealing with Sufi literature proceeds with scientific steps that define the symbol in language and terminology, and then approaches the symbolic image and its transformations at the level of creativity and art to know the meaning and what is behind every symbolic use with a communicative structure that established a new concept that went beyond the traditional Arabic graphic symbols and the methods of its adherence to the old towards . .a surprising, profound and different Sufi aesthetics
Perhaps one of the most prominent results of the research is the predominance of the non-traditional Sufi cultural character over the symbolic uses in the Qushayri message,

in addition to the association of the symbolic image with proof that embodies the kinship .between the symbolic revelations and the recipient's insight
.There are other results confirmed in the text of the research
key words : The symbol , Cortical message , Sufi literature , Metonymy , Imam Al- . Qushayri

الرمز في الرسالة القشيرية للإمام القشيري (ت 465هـ)

مقدمة :
الحمد لله رب العالمين , وصلى الله على محمد وعلى اله الطيبين الطاهرين وعلى صحبه الاخيار المنتجبين , ومن دعا بدعوته الى يوم الدين .
وبعد :
يتناول هذا البحث صورة الرمز وما تحمله من ابعاد و دلالات ايحائية مفتوحة ذات صلة وثيقة بالمائز من الاساليب والطرائق الفنية في الاستعمالات البيانية عند العرب , في أحد ابرز الانجازات الابداعية العربية الصوفية الا وهي (الرسالة القشيرية للإمام القشيري (ت 465هـ) ؛ تلك المدونة الصوفية التي لم تأخذ حظها من العناية والاهتمام والدرس .
ولعل من اللافت في (الرسالة القشيرية) حالة الصراع الثقافي التي نرصدها بين غنى الادب الصوفي وثرائه وتوظيفاته وبين السلطة العباسية والمجتمع انذاك ؛ اذ كان هذا الصراع يمثل تجربة غنية للتعبير عن الذات الصوفية والحرية الفكرية بفلسفة خاصة وفكر خاص ولغة خاصة ايضا . ويسير البحث في التعامل مع الادب الصوفي بخطوات علمية تعرّف بالرمز لغة واصطلاحا , ومن ثم مقاربة الصورة الرمزية وتحولاتها على مستوى الابداع والفن لمعرفة المغزى وما وراء كل استعمال رمزي ذي بنية تواصلية أسست لمفهوم جديد تجاوز التقليدية البيانية العربية وطرائق تمسكها بالقديم نحو جماليات صوفية مفاجئة وعميقة ومغايرة

الرمز لغة :
تصويت خفي باللسان كالهمس , والرمز : اشارة وإيماء بالعينين والحاجبين والشفتين . والرمز : كل ما أشرت اليه مما يُبان بلفظ بأي شيء أشرت اليه بيد , أو بعين (1) ,

الرمز اصطلاحا :
هو ((ما أخفي من الكلام ...وإنما يستعمل المتكلم الرمز في كلامه فيما يريد طيه عن كافة الناس والإفضاء به الى بعضهم))(2) , وعد ابن رشيق القيرواني الرمز من انواع الاشارة وقال : ((ومن انواعها الرمز كقول احد القدماء يصف امرأة قتل زوجها وسبيت :
علقت لها من زوجها عدد الحصى مع الصبح او مع جنح كل اصيل
يريد : اني لم اعطها عقلا , ولا قودا بزوجها إلا الهم الذي يدعوها الى عد الحصى)) (3) وتابعه البلاغيون في عد الرمز من الاشارة والكناية والى ذلك ذهب عبد القاهر الجرجاني والسكاكي والخطيب القزويني (4) والرمز هو الصلة بين الذات والأشياء , بحيث تتولد المشاعر من طريق الاثارة النفسية الايحائية لا من طريق التسمية والتصريح (5) , والشاعر لا يخلق صوره الرمزية من عدم , وإنما يختار من الامكانات المتاحة في اللغة , ويستعين بمدركاته الحسية المختزنة , ويقيم تفاعلا من نوع خاص , ليشكل نظاما لغويا قادرا على ابراز الدلالات التي تحتويها التجربة الشعورية والفنية (6) .
ويرى بعض الباحثين أن المبدع يلجأ الى الصورة الرمزية بتوجيه من تجربته الشعورية المضطربة التي لا يمكن التعبير عنها إلا بالصورة الرمزية دون غيرها , فهي ذات إيحاء جم , ومظهر إيجاز واضح (7) , في حين يرى آخرون أن الاستعمال الرمزي ((يتيح لنا أن نتأمل شيئا آخر وراء النص فالرمز قبل كل شيء معنى خفي وإيحاء)) (8) وأخيرا , فان التوظيف الرمزي عند الصوفيين يمكن أن يمثل دعامة ثقافية معرفية عند القدماء لأنه يمثل علاقة شيئ حسي يعد كإشارة لشيء معنوي لا يقع تحت الحواس (9) الى ما يمثل علاقة وطيدة بين ظاهر الرمز وباطنه .
وحين نطالع الرسالة القشيرية نركن الى اهمية التوظيف الرمزي فيها وما يؤديه من دور مهيمن تغلب عليه الاستعمالات الصوفية ذات الطابع الثقافي غير التقليدي في النص , ففي باب القبض والبسط يقول القشيري : ((وقد عد أهل التحقيق حالتي القبض والبسط : من جملة ما استعاذوا منه , لأنهما بالإضافة الى ما فوقهما من استهلاك العبد واندراجه في الحقيقة : فقر وضر)) (10) ولعل من الجلي هنا ان نلحظ الاثر النفسي والمعرفي الذي تتركه الكناية في النص وما ينطوي على ذلك من تأمل وتفكر ؛ فالمعنى الذي تحدثه معنى غير مباشر يستثير النفس , ويؤجج فيها حب التطلع نحو معرفة مغزى النص الكامن خلف كل استعمال كنائي اذ ان الكناية تتصدر مرتبة متميزة في كيان البيان العربي , والتعبير بالكناية له منزلة التصوير

المبني على الذائقة الفنية والقيمة البلاغية التي تتعلق بفن القول (11) . ويبدو لي ان التوظيف الصوفي الرمزي لفن الكناية في النص السابق لم يكن تقليديا ولا نمطيا على الاطلاق لأنه كان توظيفا عرفانيا , فالقبض للعارف : بمنزلة الخوف , والبسط للعارف : بمنزلة الرجاء كما يرى الصوفيون , وللقبض والبسط مسالك عند الصوفية تقع فيما وراء الالفاظ وتتعمق في ظلال المعاني فتثير المتلقي للغوص فيها بوساطة المعنى المختبئ تحت اللفظ المقصود لهذا الامر (12) .

وفي باب الهيبة والأنس يقول القشيري : ((فالهيبة : أعلى من القبض , والأنس أتم من البسط , وحق الهيبة الغيبة , فكل هائب غائب)) (13) وهذه تعرف عند الصوفية من مقامات التصوف السلوكي , وهي هنا كناية ترمز الى التجلي الصوفي ؛ وهي حال عظيمة يجدها قلب العبد اثر التجلي , وكذا الحال مع الانس الذي يتعلق بالمباسطة عن الحجاب وعن الكشف , ولعل مثل هذه الاستعمالات الكنائية ذات الرمزية الصوفية تتجلى في انها لا تقود المتلقي الى المعنى المباشر مثلما تفعل الاساليب الرمزية , بل تنحرف بالمتلقي عن الغرض , وتحاوره وتداوره بنوع من التمويه , فتبرز له ما لا تريده من المعنى , وتخفي عنه ما تريد من معنى حتى تثير عقله وفضوله وفكره (14) .

وفي باب الزهد , يقول القشيري : ((الزهد في الحرام ؛ لان الحلال مباح من قبل الله تعالى ؛ فإذا أنعم الله على عبده بمال من حلال , وتعبده بالشكر عليه , فتركه له باختياره لا يقدم على امساكه له بحق اذنه)) (15) والزهد في الحرام كناية عن الصبر , والمعنى ان الزهد في الحرام واجب , وفي الحلال فضيلة ؛ لان تحمل الشحة والفقر وقلة المال من لدن العبد وصبره على حاله برضا بما قسم الله تعالى له , وقناعة بما اعطاه , أتم من توسعه وتبسطه في الدنيا , ولعل من الجلي هنا الكيفيات التي انبنى عليها الاستعمال الرمزي الكنائي , فثمة توسع في بلورة القيمة الفنية للتعبير الكنائي , وثمة اشارات رامزة بجانب الدلالة الاشارية التي تبعد التركيب اللغوي عن المباشرة (16) , ولعل من المهم هنا ان نلحظ التوظيف الرمزي الذي يتجسد في الالفاظ الدالة على معنى المعنى , وطريقة عرضها للمعاني بالفاظ وجيزة اثمرت عن عمق خفي لدلالاتها الموحية بترك متسع امام الذهن يجول في خاطره لوضع اليد على المعنى المختبئ خلف البنية الشكلية للألفاظ .

وفي باب محاسبة النفس وذكر عيوبها يقول القشيري : ((ثم اعلم ان مخالفة النفس رأس العبادة ...وقد سئل المشايخ عن الاسلام , فقالوا , ذبح النفس بسيوف المخالفة)) (17) والمعنى الدلالي للنص ان مخالفة النفس كناية ترمز للنفس الامارة بالسوء

ويبدو لي ان ثمة صورة كنائية تعرض المعنى مقرونا بالبرهان ولذا فهي ابلغ من التصريح , وان ثمة وسيلة لإفراغ المعنى ونقله بطريقة غير مباشرة لعمق القرابة بين الايحاءات الرامزة وبين ظلام البصيرة وتشوهها , اذ ان بالغ الاثر في النفوس مما لاتصل اليه الحقيقة المجردة ؛ يمكن ان يفهم من عرض الكلام وجانبه , وسياقاته وقرائن احواله)) (18) الامر الذي يجعل عملية ادراك المعنى ومعرفة كنهه عملية تحتاج الى فهم خاص وإدراك خاص وتدبر خاص ايضا .

وفي باب الصبر يقول القشيري : ((وأما الصبر على ما ليس بمكتسب للعبد : فصبره على مقاساة ما يتصل به من حكم الله فيما يناله فيه مشقة)) (19) ولعل الصبر على ما ليس بمكتسب للعبد كناية عن القناعة , وحالة من لا يطلب المزيد وعدم رغبة المرء في اكثر مما هو حاصل عليه وهو القليل و ما دون الكفاية . ويمكن ان نلحظ التمكن الصوفي الذي ينبئ عن تمكن ثقافي وبلاغي غير تقليدي؛ بسبب من كون تقانة الرمز تقانة تعد من روافد الايحاء ولها اثر في ذائقة المتلقين , كما انها شكلت منعطفا ابداعيا يكشف عن المخزون الثقافي للمتصوفة ذات القدرة على بلورة ستراتيجيات اعمال الذهن ومقارنة الاشياء ثم ربطها وترتيبها لتكون العلاقات بين الموضوعات والأشياء علاقات متحدة مع العقل (20) .

وفي باب الخلوة والعزلة يقول القشيري : ((أوصاني الشبلي , فقال الزم الوحدة , وامح أسمك عن القوم , واستقبل الجبار حتى تموت)) (21) ولعل المعنى الكنائي في قوله (وامح اسمك) يرمز الى الكناية عن النسيان , او الدخول في حالة من الفقدان الظاهري . والمح من طريق هذا السياق المؤثرات الثقافية التي يعلنها النص والتي تكون دالة على ثقافة المتصوفة ومشروعهم العرفاني الكبير ؛ فثمة وشائج ومعالم تؤثر في صيرورة النص وثمة خلفية مهمة ثرية بالتجارب والخبرات والقيم والدلالات (22) أضف الى ذلك حالة اتحاد وسائل السياق المتنوعة لإنتاج النص (23) .

ويقول القشيري , أخيرا , :((قيل للجنيد : من أين استفدت هذا العلم ؟ فقال : من جلوسي بين يدي الله ثلاثين سنة تحت تلك الدرجة . وأومأ الى درجة في داره)) (24) ولعل الجلوس بين يدي الله كناية ترمز الى الانقطاع عن الخلق واعتزالهم والتوقف عن مخالطتهم . ويبدو لي ان ثمة وعي له قدسيته في النص وان ثمة استحضار يتسع ويستجيب الى ممكنات عابرة الى عرفانية غير تقليدية ؛ عرفانية تمزج بين الماضي والحاضر والمستقبل مزجا متسقا ومشوقا (25) يرسم الاشياء والافعال كما هي في نفس اهل التصوف والعرفان العالمين بأسرار الحقائق والخلق

الخاتمة :

وفي الختام نخلص الى النتائج الاتية :

■ غلب الطابع الصوفي الثقافي غير التقليدي وغير النمطي على الاستعمالات الرمزية في الرسالة القشيرية , وارتقى الى مستوى العرفان والعلم بأسرار حقائق الاشياء .

■ بات الرمز عند المتصوفة باب من أبواب التصوف السلوكي الذي يثير العقل والفضول والفكر .

■ انمازت الكيفيات التي انبنى عليها الاستعمال الرمزي عند المتصوفة بالتوسع القائم على الاشارات الرامزة ذات الدلالة المشفرة .

■ انمازت الصورة الرمزية عند المتصوفة بأنها وسيلة مقرونة بالبرهان تجسد القرابة بين الايحاءات الرامزة وبين بصيرة المتلقي .

■ بات التمكن الرمزي الثقافي الصوفي تمكنا غير تقليدي بسبب من كون تقانة الرمز تقانة ايحائية ولها اثر في ذائقة المتلقين .

■ شكل المخزون الثقافي الصوفي قدرة على بلورة ستراتيجيات رمزية ذات علاقات متحدة مع العقل .

■ للمتصوفة مشروع رمزي عرفاني كبير قائم على صيرورة وحالة من الاتحاد بين وسائل السياق و النص .

الهوامش :

1- ينظر : لسان العرب , ابن منظور, دار صادر , بيروت , ط1, 1991 : 5/ 356. مادة (رمز)

2- البرهان في وجوه البيان , ابن وهب , تح : د. احمد مطلوب و د. خديجة الحديثي , بغداد , 1967: 137.

3- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده , ابن رشيق القيرواني , تح: محيي الدين عبد الحميد , القاهرة , ط2, 1955: 306/1.

4- ينظر : دلائل الاعجاز , عبد القاهر الجرجاني , تح : محمد رشيد رضا , القاهرة , ط5, 1372 : 237 . ومفتاح العلوم , السكاكي , القاهرة , 1937: 194. والإيضاح , الخطيب القزويني , تح : جماعة من علماء الازهر , القاهرة : 237 .

5- ينظر : الادب المقارن , د. محمد غنيمي هلال , دار العودة , بيروت , ط3, 1994: 293.

6- ينظر : الرمز والقناع في الشعر العربي الحديث (السياب ونازك والبياتي) محمد علي كندي , دار الكتاب الجديد المتحدة , بيروت , ط1, 2003: 31 .

7- ينظر : الصورة الادبية , مصطفى ناصف , دار الاندلس , بيروت , ط2, 1981: 157.

8- الثابت والمتحول بحث في الابداع والإتباع عند العرب , أدونيس , علي أحمد سعيد , دار الساقي , بيروت , 1978 : 160 .

9- ينظر : الرمز والرمزية في الشعر المعاصر , محمد فتوح , دار المعارف , دمشق , ط3, 1984: 40 .

10- الرسالة القشيرية , الامام القشيري , دار صادر , بيروت : 69 .

11- ينظر : اصول البيان العربي في ضوء القران الكريم , د.محمد حسين الصغير , دار المؤرخ , بيروت , ط1, 1999: 144.

12- ينظر : الاداء البياني في لغة القران الكريم , د. صباح عباس عنوز , بين النظرية والتطبيق , التميمي للنشر , النجف الاشرف , ط1, 2012 : 86 .

13- الرسالة القشيرية : 69 .

14- ينظر : الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب , د. جابر عصفور , المركز الثقافي العربي , ط3, 1992 : 326

15- الرسالة القشيرية : 112 .

16- ينظر : فلسفة البلاغة بين التقنية والتطور , د.رجاء عيد , منشأة المعارف بالاسكندرية ط2 : 422 .

17- الرسالة القشيرية : 140 .

18- ينظر : علم البيان (دراسة تحليلية لمسائل البيان) , بسيوني عبد الفتاح فيود , مؤسسة المختار , ط2, 1998 : 260 .

19- الرسالة القشيرية : 165 .

20- ينظر : الصورة في التشكيل الشعري , د. سمير علي الدليمي , دار الشؤون الثقافية العامة , ط1, 1990 : 67 .

21- الرسالة القشيرية : 106.

22- ينظر : تطور الشعر العربي الحديث في العراق , د.علي عباس عوان , منشورات وزارة الاعلام , الجمهورية العراقية , 1975 : 59 .
23- ينظر : الرمز ودلالاته في القصيدة العربية المعاصرة -قراءة في الشكل- خليل حاوي انموذجا , اطروحة دكتوراه , جامعة الجيلالي اليابس –سيدي عباس , الجزائر : المقدمة.
24- الرسالة القشيرية : 35 .
25- ينظر: جماليات الاسلوب -الصورة الفنية في الادب العربي , د. فايز الداية , دار الفكر , دمشق , ط2, 1990 : 72 .

المصادر والمراجع :

أولا : الكتب .
- الاداء البياني في لغة القران الكريم , د. صباح عباس عنوز , بين النظرية والتطبيق , التميمي للنشر , النجف الاشرف , ط1, 2012 .
- الادب المقارن , د. محمد غنيمي هلال , دار العودة , بيروت , ط3, 1994.
- أصول البيان العربي في ضوء القران الكريم , د.محمد حسين الصغير , دار المؤرخ , بيروت , ط1, 1999.
- والإيضاح , الخطيب القزويني , تح : جماعة من علماء الازهر , القاهرة .
- البرهان في وجوه البيان , ابن وهب , تح : د. احمد مطلوب و د. خديجة الحديثي , بغداد , 1967.
- تطور الشعر العربي الحديث في العراق , د.علي عباس عوان , منشورات وزارة الاعلام , الجمهورية العراقية , 1975 .
- الثابت والمتحول بحث في الابداع والإتباع عند العرب , أدونيس , علي أحمد سعيد , دار الساقي , بيروت , 1978 .
- جماليات الاسلوب -الصورة الفنية في الادب العربي , د. فايز الداية , دار الفكر , دمشق , ط2, 1990 .
- دلائل الاعجاز , عبد القاهر الجرجاني , تح : محمد رشيد رضا , القاهرة , ط5, 1372 .
- الرسالة القشيرية , الامام القشيري , دار صادر , بيروت .
- الرمز والرمزية في الشعر المعاصر , محمد فتوح , دار المعارف , دمشق , ط3, 1984: 40 .
- الرمز والقناع في الشعر العربي الحديث (السياب ونازك والبياتي) محمد علي كندي , دار الكتاب الجديد المتحدة , بيروت , ط1, 2003.
- الصورة الادبية , مصطفى ناصف , دار الاندلس , بيروت , ط2, 1981.
- الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب , د. جابر عصفور , المركز الثقافي العربي , ط3, 1992 .
- الصورة في التشكيل الشعري , د. سمير علي الدليمي , دار الشؤون الثقافية العامة , ط1, 1990 .
- علم البيان (دراسة تحليلية لمسائل البيان) , بسيوني عبد الفتاح فيود , مؤسسة المختار , ط2, 1998 .
- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده , ابن رشيق القيرواني , تح: محيي الدين عبد الحميد , القاهرة , ط2, 1955.
- فلسفة البلاغة بين التقنية والتطور , د.رجاء عيد , منشأة المعارف بالاسكندرية ط2 .
- لسان العرب , ابن منظور, دار صادر , بيروت , ط1, 1991 : 5/ 356. مادة (رمز) .
- مفتاح العلوم , السكاكي , القاهرة , 1937 .

ثانيا : الرسائل والاطاريح الجامعية :
- الرمز ودلالاته في القصيدة العربية المعاصرة -قراءة في الشكل- خليل حاوي انموذجا , اطروحة دكتوراه , جامعة الجيلالي اليابس –سيدي عباس , الجزائر .